هناك إله

بسم الله الرحمن الرحيم

مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

هناك إله

كيف غير أشرس ملاحدة العالم أفكاره؟!

تأليف: أنتوني فلو

مع روي إبراهام ڤارجيس

ترجمة: جنات جمال

تقديم: د. محمد العوضي

هناك إله

كيف غير أشرس ملاحدة العالم أفكاره؟

There Is A God

How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind?

أنتوني فلو

Antony Flew

ترجمة: جنات جمال

تقديم: د. محمد العوضي

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٧

مقاس الكتاب: ١٧*٢٤

عدد الصفحات: ٢٥٦

رقم الإيداع: ٢٥٦٢٨/ ٢٠١٤

الترقيم الدولي: ٨-٤-٨٥١٦٥-٩٧٧-٩٧٨

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر (مركز براهين)، وإنما بالأحرى عن وجهة نظر المؤلف.

مركز براهين للأبحاث والدراسات

أرقام المبيعات: ٠١٠٦٤٨٠٠٠٩٤(٠٠٢) – ٠١٠١٥٥٧٧٤٦٠(٠٠٢)

بريد المبيعات: sales@braheen.com

صفحات المبيعات: braheen_books braheen.bookstore

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2016 for **Braheen Center**

There Is A God By **Antony Flew**

Published by arrangement with **HarperOne**, an imprint of **HarperCollins** Publishers. Responsibility for the accuracy of the translation rests solely with **Braheen Center** and is not the responsibility of **HarperCollins**. No part of this book may be reproduced in any form without the written permission of the original copyright holder.

Braheen Center for Research and Studies, Ltd.

عن المؤلف

(أنتوني جيرارد نيوتن فلو Antony Garrard Newton Flew) هو فيلسوف الأديان البريطاني الشهير ومدرس الفلسفة في جامعات أوكسفورد وأبردين وكيلي وريدنج ويورك، يمكن القول إنه كان أشهر ملحد في العالم الناطق بالإنجليزية.

بعد أكثر من خمسين عاما قضاها في الإلحاد والدفاع عنه والتصنيف فيه، حتى أنه صنف من أشرس الملاحدة، وشكلت كتبه ومقالاته حجر أساس فكري للملحدين الحاليين، يعلن في عام ٢٠٠٤م، وبعد أن بلغ من العمر واحد وثمانون عاما، ليعلن أنه الآن يؤمن بوجود الإله بدافع من البراهين العلمية.

«مركز براهين» لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية هو مركز بحثي مستقل، يعمل كمؤسسة غير ربحية مرخصة في لندن بالمملكة المتحدة، ويُعنى فقط بالعمل في المجال البحثي الأكاديمي لتوفير إصدارات متعددة (مكتوبة، مرئية، صوتية) على درجة عالية من الدقة والموضوعية والتوثيق يسعى من خلالها لتحقيق رسالته.

• رؤية المركز: عالم بلا إلحاد.

• رسالة المركز: المساهمة النوعية في تفكيك الخطاب الإلحادي ونقد مضامينه العلمية والفلسفية وأبعاده التاريخية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية وبناء التصورات الصحيحة عن الدين والإنسان والحياة ومعالجة النوازل العقدية انطلاقاً من أصول الشريعة ومحكمات النصوص كل ذلك بلغة علمية رصينة وأسلوب تربوي هادف.

BRAHEEN CENTER

for Studying Atheism
and Contemporary Issues of Faith

27 Old Gloucester Street, London,
United Kingdom, WC1N 3AX

• سياسة المركز: يعمل المركز بشكل أساسي على نقد أصول ومظاهر الإلحاد الحديث نقدا منهجيا، مع مراعاة البعد النفسي للمتلقين بمختلف فئاتهم، والحرص على تركيز النقد على الأطروحات الأساسية للخطاب الإلحادي الحديث. كما تنتهج مخرجات المركز أساليب الإفحام، والنقض، والدفاع وكذلك أساليب البناء والإقناع والهجوم وتقديم البدائل قدر الإمكان. وتنحصر مخرجات المركز بشكل رئيسي في ثلاثة مجالات عريضة: علمية، فلسفية، شرعية.

الموقع الرسمي: www.braheen.com

للتواصل والاستفسارات العامة: info@braheen.com

للتواصل مع المدير التنفيذي: ammar@braheen.com

فيسبوك: fb.braheen.com تويتر: t.braheen.com

يوتيوب: y.braheen.com انستجرام: i.braheen.com

مقدمة الناشر

مقدمة المترجمة

لن أتحدث هنا عن سبب الاهتمام بترجمة الكتاب، فيكفي ما سيقدمه د. محمد العوضي في الصفحات التالية. ولن أعلق كذلك على مكانة الكتاب والمؤلف، فيكفي ما سيكتبه ڤارجيس في التمهيد. ولن أقدم أيضا لرحلة فلو الفكرية، فهذه قدم لها فلو بنفسه في المقدمة.

لكن ما أود حقًا التعليق عليه، هو موقفنا مع الكتاب كمسلمين. نعم، أنتوني فلو لم يعلن إسلامه، ومعظم معلوماته التي صرح بمعرفتها عن الإسلام مشوهة للغاية، وسؤالي للمسلمين هنا، من السبب وراء استمرار انتشار هذه الكم الكبير من المعلومات المغلوطة عن الإسلام في الغرب؟ دين الإسلام كما نعرفه، لا يحضر على طاولة الحوار الفكري في الغرب إلا نادرًا، وفلو ليس استثناءً كما سنرى. خصص فلو الملحق الثاني من الكتاب لطرح حوار مطول بينه وبين الأسقف رايت، وقد وصف طرح رايت عن المسيحية بأفضل طرح ديني رآه؛ إله كان مرعوبا من فكرة أنه الإله، وكان يشك في ألوهيته ويظن أنه ربما أخطأ في الأمر برمته، وعقيدة لا تجد ما يثبتها من نصوصها المقدسة، ونص مقدس لم تثبت قدسيته... هذا هو أفضل طرح ديني! تُرى مشكلة من تلك؟!

سريعًا أترك للقراء عدة ملحوظات عن الترجمة، لعل أولها صعوبة بعض العبارات، وهو أمر مقصود، فقد كانت الأولوية لنا في هذا العمل التوثيقي الحفاظ على أسلوب فلو قدر الإمكان. وثانيها عن الهوامش، فهوامش الكتاب الأصلية ستجدونها في نهاية الكتاب، وفيها التوثيق لكل المعلومات الواردة داخله. والثالثة اعتذار عن الإرهاق الذي قد يجده البعض من وضع أسماء الأعلام والكتب بالإنجليزية داخل النص —وهو أمر تغاضيت عنه في ترجمة التمهيد—، ولكن اقتضت الضرورة ذلك لإكمال الحالة التوثيقية التي حرصنا عليها.

جنات جمال

أنتوني فلو... وجدلية (النـــص) و(الـشخـص)

ما درجة قوة حُجيَّة انقلاب رمز فكري على قناعاته القديمة، وتراجعه عن مفاهيم أفنى حياته في التبشير بها، وقيامه بكامل وعيه بنقض الأسس العقلية لبنائه المعرفي السابق؟ في أي مراتب الحجج المنطقية نضع هذا التحول الفكري؟ هل نحن أمام حجة –على حسب تقسيم المناطقة– برهانية أم جدلية أم خطابية أم شعورية أم مغالطية (سفسطية)؟

نبدأ التصدير لكتاب (**هناك إله**) بهذه التساؤلات لعدة اعتبارات، أولًا موقع الشخصية التي نحن بصدد الكلام عنها **أنتوني فلو**، وثانيا ما ترتب على قناعاته الجديدة المعلنة من ضجة إعلامية، يهمني منها ردود أفعال معسكري "المؤمنين" و"الملحدين"، وعلو صوت العاطفة عند ناشطي الفريقين. وقد تجلت ثنائية "التهويل" من المؤمنين و"التهوين" من الملحدين للحدث ذاته، لتكشف نزعة التحيز المسبقة لدى الإنسان بما فيهم النخب من كل الاتجاهات على تفاوت بين الأفراد.

وهي قضية متجددة كلما أعلن رمز فعَّال عن تراجعه أو تمرده على قناعته وموروثه الفكري الإيماني أو المادي أو التاريخي. ومن أمثلة ذلك في عالمنا العربي يبرز اسم **عبد الله القصيمي** الذي يحتفل الملاحدة بردته العنيفة عن التوحيد، التي شحن بها كتبه الناقدة الساخرة بالرب والدين. وفي المقابل احتفى المؤمنون بعودة **د. مصطفى محمود** إلى الإيمان بعد إلحاده المستفز، وبما قدمه لنصرة الدين في برنامجه الشهير العلم والإيمان في قرابة ٤٠٠ حلقة بالإضافة إلى مؤلفاته العديدة. وكما زغرد أهل الإيمان بعودة الفيزيائي **پول ديڤيز** إلى الإيمان بعد إلحاده، رقص الملاحدة طربا بإعلان الفيزيائي **ستيفن هوكينج** باستغناء الكون عن الخالق في كتابه التصميم العظيم.

وكيف سيتلقى كلا المعسكرين المتناقضين النتيجة النهائية لقناعة **ستيف چوبز** في الإله التي ختم بها **ولتر أيزيكسون Walter Isaacson** كتابه عن حياة **چوبز** ونصها: (احتمالية الإيمان بالله بالنسبة لي خمسين خمسين...)؟!

بعد هذه التساؤلات أعلق بإيجاز على شكل نقاط، مبينا خلل التفكير والتعبير في التعاطي مع هذا التجاذب من خلال جدلية (النص والشخص):

• في الوقت الذي ينعى فيه الملاحدة على المؤمنين أنهم اتخذوا من رجوع أنتوني فلو (الشخص) عن الإلحاد حجة لهم مهولين من شأنه، فإنهم مارسوا المنطق ذاته بطريقة عكسية، وعلى رأسهم ريتشارد **دوكينز**. فبدلا من أن يناقش أدلة **فلو** (النص)، قفز إلى التهوين من (الشخص) معللا رجوعه عن إلحاده بكبر سنه* ومحاولته لجلب أضواء الإعلام. فماذا يسمي الملاحدة موقف **دوكينز** من **فلو** دون اطلاعه على أدلته؟

• اعترض البعض على **أنتوني فلو** بأنه مختص في الفلسفة، فكيف يقحم نفسه في مناقشة أدلة البيولوجيين والفلكيين والفيزيائيين في كتابه؟!

وهذا اعتراض فيه مغالطة تتكرر بصور متعددة، يوردها المحتجون الذين يردون على إلحاد علماء الطبيعة كستيفن **هوكينج** ولورانس **كراوس**. والجواب أن الاعتراض ليس على تفاصيل علومهم البحتة، وإنما على الاستنتاجات الفلسفية المغلوطة المستندة إلى تلك العلوم. ثم إن المثقفين من كل الاتجاهات، يستشهدون بالنظريات العلمية، كقوانين **نيوتن** للحركة، ونسبية **أينشتاين** العامة والخاصة، ومبدأ عدم التأكد **لهايزنبرج**، وفيزياء الكوانتم، والانفجار الكبير وغيرها الكثير؛ يستشهدون من حيث الفكرة الكلية للنظرية، لا من باب الدرس التفصيلي التعليمي.

---

* جاء رد **فلو** على هذه الاتهامات صاعقا لدوكينز ومريديه.

• الباحث الهازل والمتحيز يطوي أدلة خصمه (النص)، أو يحيطها بحجاب من الغموض أو التجاهل التام؛ مركزا على (الشخص). بينما الجادون والموضوعيون في قراءة أفكار خصومهم، يقرون بوجاهتها وقوتها، وبعد مناقشتها يحددون موقفهم منها.

وهذا ما فعله أنتوني فلو، وهو ما يميزه، وهنا تبرز أهمية صلة (شخصه) بـ(نصه). فنحن لسنا أمام مفكر تراجع فحسب، وإنما مع إرادة صادقة في البحث عن الحقيقة، وجهد متواصل في مراجعة المفاهيم ومحاكمتها. لذا كان **د. عمرو شريف** موفقاً عندما عنون دراسته لكتاب فلو بـ(**رحلة عقل**) محللا التجربة المكتنزة بالمعارف والقواعد والنتائج، والشجاعة الأدبية في نقد الذات علنا.

• استثمار ردود الخصوم؛ أحد سمات هذا **المفكر** أنه يقرأ ردود ناقدي فكره قراءة من يبحث عن جوانب الضعف في أدلته، ومن ثم يصحح خطأه. وهذا ما طور رؤيته، بخلاف رفاق دربه من الملاحدة.

• لم يكتف **فلو** بالرجوع إلى المراجع العلمية في بحوثة، وإنما تواصل مع أهل الاختصاص –ومنهم چيرالد شرودر وچون هالدين– لفحص أطروحاته، كما في جاء في شهادته المتلفزة وأكد ذلك في كتابه.

• ومن مهمات المؤثرات في مراجعاته الفكرية، ما صرح به في كتابه من أن الاكتشافات العلمية جعلته كملحد يشعر بالحرج من إلحاده. وبالمقارنة مع غيره، فإن العلم يدفعهم لتبني الخرافة تحيزا لجمودهم الفكري، ولعل **ريتشارد دوكينز** نموذج واضح لكل من استمع إلى إجابته على سؤال نشأة الحياة.

• (**حيثما قادك الدليل فاتبعه**)؛ هذه التي اتخذها فلو شعارا في حياته وبحثه عن الحقيقة، هي التي ارتقت بمفاهيمه وجعلته يحاكم قناعاته؛ أسئلة البدايات الوجودية،

ومشكلة الشرور والآلام في الكون، ونظرته للعلم، وموقف العقل من المكون المعرفي في الوجود.

• ليس صحيحا ولا لائقا بالباحثين المختلفين حول حقيقة معينة، أن ينجروا في حواراتهم إلى ثنائية (التهويل) و(التهوين)، كما تعاطى الكثير مع خبر تحول أنتوني **فلو** الفكري. فـ(النص) مقدم على (الشخص)، لكن لا يمكن فصل (النص) عن مصدره، لما له من ارتباط ذو أبعاد تلقي بظلالها. وقد ألمحنا لشيء من ذلك. ومع هذا فأنتوني **فلو** كما ورد في كتاب –المطبوع في القرن الماضي قبل إيمان فلو– (ملحدون معاصرون) للدكتور **رمسيس عوض**: "إذا كان برتراند **راسل** وصديقه ألفرد **إير** من أبرز من هاجموا الدين قبل الحرب العالمية الثانية، فإن أنتوني **فلو** يعد واحدا من أهم منتقدي الدين في الفترة التي أعقبت هذه الحرب". ونختم بالإشارة للسؤال الذي بدأنا به عن مدى حجية تراجع الرمز عن فكره في تأكيد صواب رأينا وبطلان رأي الخصوم...

الجواب في النص الذي بين يديك، ألا وهو كتاب (هناك إله).

د. محمد العوضي

تمهيد

روي أبراهام خرجيس

"ملحد شهير يؤمن الآن بالإله: واحد من رواد الإلحاد في العالم يؤمن الآن بالإله، بصورة أو بأخرى، بِنَاءً على الأدلة العلمية". كان هذا هو العنوان لرواية (**الأسويشيتد بريس Associated Press**) للخبر في التاسع من ديسمبر ٢٠٠٤م، والتي تابعت لتقول: **"أستاذ الفلسفة البريطاني الذي قاد مسيرة الإلحاد لأكثر من نصف قرن، غير الآن آرائه. فهو الآن يؤمن بوجود الإله، بصورة أو بأخرى، بناء على الأدلة العلمية. حيث أعلن عن ذلك في فيديو أُطلِق الخميس"**. وعلى الفور، تحول الإعلان لحدث إعلامي أشعل تقارير وتعليقات التلفاز والراديو والصحف والإنترنت على مستوى العالم. واكتسبت القصة زخمًا، للدرجة التي جعلت الأسويشيتد بريس تُتبع الإعلان الأصلي بملحقين. مادة ما ورد في القصة، ومعظم ما ورد في تخمينات الملحقين، كانت أن البروفيسور أنتوني فلو، الذي ألف زهاء ثلاثين عملا فلسفيا احترافيا، ساعدت في وضع أجندة الإلحاد لنصف قرن، والذي كانت ورقته (**علم اللاهوت والتزييف**) —التي قدمها للمرة الأولى عام ١٩٥٠م في نادي سقراط الذي ترأسه سي إس لويس بجامعة أوكسفورد— أكثر المنشورات الفلسفية التي أعيد طبعها في القرن الأخير؛ الآن ولأول مرة يعطي تفاصيل الحجج والأدلة التي قادته لتغيير رأيه. وهذا الكتاب، بصورة ما، يقدم بقية القصة.

لعبت دورًا صغيرًا في خبر **الأسويشيتد بريس**، حيث أني ساعدت في تنظيم المؤتمر الذي نتج عنه الفيديو الذي أعلن فيه توني فلو عما أسماه بعد ذلك مازحا "**تحوله**". في

الحقيقة ساعدت منذ عام ١٩٥٨م في تنظيم عدة مؤتمرات، والتي أسس فيها لحجة الإلحاد. لذلك هذا العمل، أعده شخصيا ذروة رحلة استمرت لعقدين.

المثير للفضول، هو ردود أفعال زملاء **فلو** الملحدين على خبر الأسويشيتد، والتي قاربت على الهيستريا، أحد مواقعهم على الإنترنت قام بتكليف مراسِل بالقيام بتحديثات شهرية في ابتعاد فلو عن العقيدة الصحيحة، وشاعت وقتها الاتهامات التافهة والرسومات الصبيانية في فضاء مدونات المفكرين الأحرار.

نفس الأشخاص الذين نددوا بمحاكم التفتيش وبحرق الساحرات على الأوتاد، يستمتعون الآن بقليل من مطاردة الخارجين عن منهجهم. دعاة التسامح، لم يكونوا متسامحين على الإطلاق. أصبح من الواضح، أن المتدينين المتعصبين لا يحتكرون وحدهم الدوجمائية والفظاظة والرجعية والبارانويا.

لكن هياج الغوغاء، لا يمكن أن يعيد كتابة التاريخ. موقف أنتوني فلو في تاريخ الإلحاد يتجاوز أي ما يمكن أن يعرضه ملحدي اليوم.

مكانة فلو في تاريخ الإلحاد

لا نبالغ إذ قلنا أن في ظل المئة عام الماضية، لم يطور أحد فلاسفة التيار السائد ذلك النوع من الشرح الممنهج والشامل والأصلي والمؤثر للإلحاد، مثل ما قام به أنتوني فلو في خمسين سنة من الكتابة المعادية للألوهية. قبل فلو، كانت الدفاعات الرئيسية للإلحاد تأتي من مفكري التنوير أمثال ديفيد **هيوم**، وفلاسفة القرن التاسع عشر الألمان مثل أرثر **شوبنهاور** ولودفيج **فيورباخ** وفريدريك **نيتشه**.

ولكن ماذا عن برتراند **راسِل** (الذي حافظ بشكل لا يصدق على تصنيفه نظريا كلاأدري، بالرغم من كونه عمليا ملحد) والسير ألفرد **إير** وجان بول **سارتر** وألبير **كامو**

ومارتن **هايدجر**، والذين كانوا جميعا من ملحدي القرن العشرين من قبل أن يبدأ فلو الكتابة؟ في حالة **راسِل**، من الواضح جدا أنه لم ينتج شيء أكثر من مجرد منشورات جدلية في آرائه المشككة والمزدرية للدين النظامي. حيث كانت منشوراته (**الدين والعلم**) و(**لماذا لست مسيحيا**) مجرد مختارات من مقالات لم ينتج فيها فلسفة منهجية لدينه. في أحسن الأحوال، قام بلفت الانتباه إلى مشكلة الشر وسعى لتفنيد الحجج التقليدية في إثبات وجود الإله، ولكن دون إنتاج أي حجج جديدة. **إير** و**سارتر** و**كامو** و**هايدجر** كان لديهم شيء مشترك، وهو الاهتمام بإنتاج طريقة معينة في الجدال الفلسفي، والتي نتيجتها الثانوية إنكار وجود الإله. كان لديهم أنظمتهم الفكرية، والتي كان الإلحاد فيها ناتج ثانوي. والشيء نفسه ينطبق على العدميين المتأخرين كريتشارد **رورتي** وجاك **دريدا**.

بالطبع كان هناك فلاسفة ملحدين كبار في جيل **فلو**، ولعل ويلارد **كواين** وجلبرت **رايل** أمثال واضحة لذلك. ولكن لم يتخذ أيا منهم خطوة تطوير حجج تكفي كتاب كامل يدعم عقائدهم الشخصية. لماذا ذلك؟ في كثير من الحالات، كان الفلاسفة المحترفين في هذه الأيام يحجمون عن تلويث أيديهم الرقيقة بالخوض في مثل هذه الحوارات الشعبية والسوقية أحيانا. في حالات أخرى، كان الدافع هو التعقل.

بالتأكيد وجد في السنوات الأخيرة فلاسفة ملحدين انتقدوا ورفضوا الحجج التقليدية على وجود الإله. وتنوعوا فيما بينهم، من **بول إدواردز** و**والاس ماتسون** و**كاي نيلسن** و**بول كورتس**، إلى **چي إل ماكي** و**ريتشارد جيل** و**مايكل مارتن**. ولكن أعمالهم لم تغير جدول أعمال وإطار النقاش، على النحو الذي فعلته منشورات فلو المبتكرة.

أين تقبع أصالة طرح فلو الإلحادي؟ طور فلو في (**علم اللاهوت والتزييف**) و(**الإله والفلسفة**) و(**افتراض الإلحاد**) حجج جديدة ضد الإيمان بالإله، والتي وضعت خارطة طريق لفلسفة الدين ذات الصلة. في ورقته (**علم اللاهوت والتزييف**)، أثار

التساؤل حول كيف يمكن للأطروحات الدينية دعاوى ذات معنى (أكثر عباراته اقتباسا "**الموت بألف شرط**"، تجسد هذه النقطة بشكل بارز). وفي كتابه (**الإله والفلسفة**)، جادل أنه لا يمكن أن يبدأ نقاش حول وجود الإله حتى يتم التأسيس لترابط مفهوم الروح العالمة بكل شيء الموجودة في كل مكان. وفي كتابه (**افتراض الإلحاد**) زعم أن عبء الإثبات يقع على الإيمان بالإله، وأن الإلحاد يجب أن يكون هو الموقف الأصلي. وعلى طول الطريق، قام طبعا بتحليل الأدلة التقليدية على إثبات وجود الإله، ولكن تجديده للأطر المرجعية هي التي غيرت طبيعة النقاش بالكامل.

في سياق كل ما سبق، من الواضح أن رفض فلو الحديث للإلحاد كان حدثا تاريخيا. ولكن ما لا يعلمه الكثير، أنه حتى في أيام إلحاده، كان فلو يترك الباب مفتوحا —إلى حد ما— للاهوتية المتجددة.

الوضعية المنطقية عند فلو، والميلاد الجديد لعقلانية لاهوتية

هنا تكمن المفارقة؛ بدفاعه عن مشروعية نقاش الادعاءات اللاهوتية وتحديه لفلاسفة الأديان لتبرير ادعاءاتهم، ساعد فلو على ميلاد جديد للعقلانية اللاهوتية في الفلسفة التحليلية بعد الأيام المظلمة للوضعية المنطقية. ولعل من الهام شرح خلفية ذلك.

الوضعية المنطقية، كانت الفلسفة التي قدمت عن طريق مجموعة أوروبية سميت بحلقة ڤيينا في أوائل العشرينات، كما يمكن أن يتذكر البعض، ونشرها ألفرد إير في العالم الإنجليزي في كتابه (**اللغة، الحقيقة والمنطق**) عام ١٩٣٦م. وفقا للوضعيين المناطقة، العبارات ذات المعنى هي فقط القابلة للتحقق عن طريق التجربة الحسية، أو ببساطة صحيحة بحكم صياغتها ومعاني الكلمات المستخدمة بها. وبالتالي العبارة تصبح ذات معنى إذا أمكن التحقق من صحتها أو خطئها بالملاحظة التجريبية (كالدراسة العلمية

مثلا). عبارات المنطق والرياضيات البحتة هي حشو؛ ذلك لأنها صحيحة في نفسها، وهي ببساطة طرقا لاستعمال الرموز التي لا تعبر عن أي حقيقة في العالم. لا وجود لأي شيء آخر يمكن معرفته أو مناقشته مناقشة متماسكة. يقبع مبدأ التحقق في قلب الوضعية المنطقية، الادعاء بأن معنى الافتراض متضمن في إمكانية التحقق منه. كانت النتيجة أن العبارات ذات المعنى هي تلك المستعملة في العلم والمنطق والرياضيات، أما العبارات المستعملة في الميتافيزيقا والدين وعلم الجمال والأخلاق هي حرفيا بلا معنى، لأنه لا يمكن التحقق منها بالوسائل التجريبية، فهي ليست صحيحة وليست خاطئة. يقول **إير** إنه من السخيف أن تكون ملحدًا، كما هو الحال في أن تكون مؤمنًا بالإله؛ حيث أنه وببساطة، عبارة "الإله موجود" ليس لها معنى.

العديد من الأعمال التمهيدية في الفلسفة اليوم تجمع منهج فلو في (**علم اللاهوت والتزييف**) مع أمثال أير من الوضعيين المناطقة للهجوم على الدين، حيث أن كلاهما سؤاله حول معنوية العبارات الدينية. مشكلة تلك الصورة أنها لا تعكس بأي شكل فهم فلو نفسه للقضية حينها أو الآن. في الحقيقة، وبعيدا عن دعم رؤية الوضعيين للدين، اعتبر فلو ورقته كمسمار أخير في نعش هذه الطريقة تحديدا من التفلسف.

في عرض نظمته في الذكرى الأربعين لنشر (**علم اللاهوت والتزييف**) في ١٩٩٠م، صرح فلو:

"بينما كنت طالبا جامعيا أصبحت محبطا ومستاءً بشكل متزايد من المناظرات الفلسفية التي دائما ما تعود إلى الوضعية المنطقية كما فُصِلَّت بعبقرية في كتاب (**اللغة، الحقيقة والمنطق**)، ولكنها لا تتقدم أبدا انطلاقا منها؛ والنية في هذه الأوراق [الإصدارات المختلفة من ورقة (**علم اللاهوت والتزييف**)] هي فعل هذا. بدلا من التصريح المتعجرف، أن الحكم بعدم الأخذ في الاعتبار كل شيء ربما

اختار أي مؤمن أن يقوله أمر بديهي، باعتباره يعد انتهاكا للقدسية المزعومة لمبدأ التحقق، والذي حُفِظ بغرابة كما لو كان وحيا علمانيا؛ فأنا أفضل أن أطرح تحديًا أكثر انضباطا. دع المؤمنين يتحدثون عن أنفسهم، منفردين ومجتمعين".

القصة تم تناولها في العمل الحالي، حيث علق فلو مجددًا عن مصدر ورقته الشهيرة:

"خلال فصلي الدراسي الأخير بجامعة أكسفورد، صدر كتاب (**اللغة، الحقيقة والمنطق**) لألفرد إير والذي أقنع العديد من رواد نادي سقراط أن البدعة الأيرية المتمثلة في الفلسفة الوضعية المنطقية —الادعاء بأن كل الأطروحات الدينية هي بلا دلالة معرفية— يجب أن تُدحَض. الورقة البحثية الأولى والوحيدة التي ناقشتها أمام النادي كانت بعنوان (**علم اللاهوت والتزييف**)، حين قدمت ما اعتبرته لاحقًا ردًا كافيًا. اعتقدت أني حققت انتصارًا تامًا مدويًا إلى درجة أنه لم يدع مجالًا لعقد أي مناظرات أخرى".

بالفعل، أخفقت الوضعية المنطقية في الخمسينات بسبب تناقضاتها الداخلية، كما سيشهد لذلك أي تأريخ للفلسفة. في الحقيقة، حتى ألفرد إير نفسه، صرح في مجموعة مقالات حررتها: "الوضعية المنطقية ماتت منذ زمن طويل. لا أعتقد أن أغلب كتاب (**اللغة، الحقيقة والمنطق**) صحيحا، أعتقد أنه مليء بالأخطاء. أعتقد أنه كان كتابا هاما في وقته، بسبب تأثيره المُسْهِل... ولكن حين تأتي للتفاصيل، أظن أنه مليء بالأخطاء، والتي قضيت الخمسين عامًا الأخيرة محاولا تصحيحها".[1]

على أية حال، أفول الوضعية المنطقية وقواعد فلو الجديدة في التفاعل، أعطت الفلسفة اللاهوتية انطلاقة جديدة. فظهر عدد من الأعمال اللاهوتية الهامة في التقليد التحليلي، كتبها ريتشارد **سوينبورن** وألفن **بلانتنجا** وبيتر **جيش** ووليام **ألستون** وجورج **مافرودز** ونورمان **كريتسمانن** وجيمس **روز** وبيتر فان **إنواجين** وإلينور **ستامب** وبراين

ليتوف وجون **هالدين** وغيرهم الكثير خلال العقود الثلاثة الأخيرة، وعدد لا بأس به من هؤلاء تناول قضايا كمعنوية التأكيدات عن الإله، والترابط المنطقي للصفات الإلهية، وسؤال ما إذا كان الإيمان بالإله هو الأصل؛ خاصة القضايا التي أثارها فلو في المناقشات التي سعى لتحفيزها. الاتجاه نحو الإيمان بالإله، تصدر غلاف مجلة التايم في إبريل ١٩٨٠م: "في ثورة هادئة في الفكر والجدال، والتي قلما رآها أحد منذ عقدين فقط، تعود قضية الإله من جديد. الأكثر إثارة في حدوث ذلك... داخل الدوائر الفكرية للفلاسفة الأكاديميين".[٢]

"الإلحاد الجديد" أو عودة الوضعية

في ظل توالي الأحداث التاريخية، يحظى الظهور المفاجئ لما يسمى "**الإلحاد الجديد**" باهتمام خاص. عام ٢٠٠٦م كان عام "**الإلحاد الجديد**" —ظهرت العبارة لأول مرة في مجلة (وايرد Wired) في نوفمبر ٢٠٠٦م—. من (**كسر التعويذة**) لدانيل **دينيت** و(**وهم الإله**) لريتشارد **دوكينز**، إلى (**ستة أشياء مستحيلة قبل الإفطار**) للويس **وولبرت** و(**الكون المفهوم**) لفيكتور **سترنجر** و(**نهاية الإيمان**) لسام **هاريس** —الذي نشره في ٢٠٠٤م، وألحقه بـ(**رسالة إلى الأمة المسيحية**) في ٢٠٠٦م—، دعاة الإلحاد من طائفة (لا تأخذ أسرى) و(انظر للوراء بغضب) خرجوا للقتال بكامل عتادهم. مستوى النقاش —والذي يمكن اعتباره متواضعا، مع الرأفة— لم يكن هو الأمر البارز في هذه الكتب، بل كان مستوى الظهور الذي تلقوه ككتب من الأكثر مبيعا، وكقصة جديدة يكتشفها الإعلام؛ قصة ساعدها جدا حقيقة أن المؤلفين كانوا على درجة عالية من الفصاحة والحيوية، كما هو حال كتبهم الحماسية.

لا شك أن تلك الكتب تستهدف الأديان النظامية بشكل رئيسي، من أي نوع وفي أي مكان أو زمان. والمفارقة، أن الكتب نفسها تبدو كما لو كانت عظات أصولية،

والجزء الأكبر من المؤلفين يبدون كما لو كانوا واعظين يشتاطون غضبا محذرين إيانا من العقاب الأليم، أو حتى من نهاية العالم، إن لم نندم على معتقداتنا الضالة والممارسات المرتبطة بها. لا مكان للغموض أو الرقة. هو إما أسود أو أبيض. إما معنا على طول الطريق، أو أنك مع الأعداء. حتى المفكرين المرموقين الذين عبروا عن تعاطفهم مع الطرف الآخر، وصموهم بالخيانة. المبشرين أنفسهم هم أرواح شجعان يبشرون برسالتهم بالرغم من قرب استشهادهم.

ولكن كيف تتسق هذه الأعمال والمؤلفين داخل النقاش الفلسفي عن الإله في العقود الأخيرة؟ الإجابة أنهم لا يتسقون.

أولا، رفضوا التفاعل مع القضايا الحقيقية المتعلقة بسؤال وجود الإله. لم يقم أي منهم بمعالجة الأسس المركزية لافتراض وجود حقيقة سماوية (أنفق **دينيت** سبعة صفحات في حجج وجود الإله، ولا شيء من **هاريس**). فشلوا في معالجة قضية أصول المعقولية المتضمنة في نسيج الكون، والحياة المفهومة ككيان مستقل، والوعي، والفكر النظري، والذات. تحدث **دوكينز** عن أصل الحياة والوعي كأحداث انطلقت "لمرة واحدة" بسبب "أول ضربة حظ".[٣] كتب **وولبورت**: "قمت عمدًا [!] بتجنب أي نقاش عن الوعي؛ الذي لم يفهم منه إلا القليل إلى الآن".[٤]

كتب **دينيت** —المادي العنيد— عن نشأة الوعي ذات مرة: "ثم حدثت المعجزة".[٥] لم يقدم أيا من الكُتَّاب رؤية معقولة للعالم؛ والتي يمكن أن تكون مسؤولة عن وجود كون "يسري بقوانين" ويدعم الحياة ومُيَسّر بشكل معقول.

ثانيا، لم يظهر منهم وعيا بالمغالطات والإخفاقات التي أدت لظهور وسقوط الوضعية المنطقية. أولئك الذين يتجاهلوا أخطاء الماضي، حتما سيكررونها بشكل ما.

ثالثا، يبدوا أنهم يجهلون تماما الأجزاء الهامة من أعمال فلسفة الدين التحليلية أو الحجج الحديثة الراقية التي ظهرت في الفلسفة اللاهوتية.

من الإنصاف أن نقول إن "الإلحاد الجديد" ليس إلا نكوصا نحو الفلسفة الوضعية المنطقية التي تخلى عنها أعتى أنصارها المتحمسين لها. في الحقيقة يمكن القول إن "الإلحاد الجديد" لا يقوم حتى بالنهوض بالوضعية المنطقية، لم يكن الوضعيون سذج للدرجة التي يلمحون فيها أن الإله يمكن أن يكون فرضية علمية؛ حيث صرحوا أن مفهوم الإله لن يكون له معنى تماما بسبب أنه ليس فرضية علمية. ومن ناحية أخرى، يتمسك **دوكينز** بكون "حضور أو غياب خلاق فائق الذكاء هو سؤال علمي بلا أدنى شك".[٦] مثل تلك النوعية من التعليقات هي التي نقول عنها أنها ليست حتى خاطئة! في الملحق الأول، أسعى لعرض نضال خبرتنا الحالية عن العقلانية والحياة والوعي والفكر والذات ضد كل شكل من أشكال الإلحاد؛ بما فيها الجديد.

ولكن شيئين ينبغي قولهم عن تعليقات معينة **لدوكينز** مرتبطة بالكتاب الحالي، فبعدما كتب أن برتراند **راسِل** "كان ملحدا منصفا بشكل مبالغ فيه، حريص جدًا على التحرر من الوهم إذا اقتضى المنطق ذلك"، وضع في الهامش: "ربما نرى شيئا مماثلا اليوم في ارتداد الفيلسوف أنتوني **فلو** الذي انتشر بشكل مبالغ فيه، حيث أعلن بعد تقدمه في السن أنه تحول للإيمان بنوع من الألوهية (مما أثار نوبة من الحماس لتكرار الخبر في جميع أنحاء الإنترنت). وعلى الجانب الأخر، **راسِل** كان فيلسوفا عظيمًا، **راسِل** ربح جائزة نوبل".[٧] المكابرة الصبيانية بإبراز التناقض بين عظمة **راسِل** كفيلسوف والإشارة الوضيعة لتقدم فلو في العمر، هو المتوقع من رسائل **دوكينز** التنويرية. ولكن المثير هنا هو اختيارات **دوكينز** للألفاظ، والتي كشفت أحدها بدون قصد منه عن كيف يعمل عقله.

الارتداد يعني "الكفر بعد الإيمان"، لذلك فخطيئة فلو الرئيسية كانت في ردته عن

معتقد الآباء. **دوكينز** نفسه اعترف في مكان آخر أن رؤيته الإلحادية للكون مبنية على الإيمان. عندما سألته (مؤسسة إيدج Edge Foundation): "ما الذي تؤمن أنه حقيقة بالرغم من عدم قدرتك على إثباته؟" رد **دوكينز**: "أؤمن أن كل الحياة وكل الذكاء وكل الإبداع وكل "التصميم" في أي مكان في الكون، هو نتاج مباشر أو غير مباشر للانتقاء الطبيعي الداروينى. وبالتالي فالتصميم أتى متأخرًا للكون، بعد فترة من التطور الداروينى. التصميم لا يمكن أن يسبق التطور، وبالتالي لا يمكن أن يكون قد شكل الكون".[٨] ومن ثم، الأساس في رفض **دوكينز** للذكاء المطلق هي مسألة إيمان بدون دليل. ومثل الكثيرين من الذين تقوم عقائدهم على الإيمان الأعمى، لا يمكنه أن يتسامح مع المعارضة أو الانشقاق.

بالنسبة لمنهج **دوكينز** حول المعقولية المتضمنة في الكون، لاحظ الفيزيائي جون **بارو** في النقاش: "ريتشارد، أنت لديك مشكلة مع هذه الأفكار، لأنك لست حقا عالما، أنت بيولوجي". لاحظت چوليا **ڤيتولو–مارتن** أن البيولوجيا بالنسبة **لبارو** ليست إلا فرعا من التاريخ الطبيعي. يقول بارو عن البيولوجيون: "الفهم البديهي للتعقيد قاصر لديهم. ما زالوا عالقين في صراع موروث منذ القرن التاسع عشر، واهتمامهم منصب فقط على النتائج ومن سيفوز على الآخر. ولكن النتائج لا تخبرك بشيء تقريبا عن القوانين التي تحكم الكون".[٩]

يبدو أن برتراند **راسِل** هو أبو دوكينز الفكري، فهو يتحدث عن كيف أنه "أُلهِم.. في سن السادسة عشر"[١٠] بمقال **راسِل** ١٩٢٥م "لماذا أؤمن". كان **راسِل** خصم عنيد للدين المنظم، وذلك ما جعله قدوة **لدوكينز** و**هاريس**، حتى أسلوبيا؛ يقلدون ولع **راسِل** بالسخرية والكاريكاتيرّية والتهكم والمبالغة. ولكن رفض **راسِل** للإله لم يكن مدفوعا فقط بعوامل فكرية. كتبت ابنته كاثرين **تيت** في (**أبي برتراند راسِل**) أن **راسِل** كان منفتحا لأي نقاش جاد عن وجود الإله: "لم أكن أستطع حتى التحدث معه عن الدين". من

الواضح أن **راسِل** كان منغلقا بسبب نوعية المتدينين الذين تصادم معهم. "كنت أود أن أقنع أبي أني وجدت ما كان يبحث عنه، الشيء الذي لا يوصف الذي طالما كان يتوق له طوال حياته. وددت لو أمكنني إقناعه أن البحث عن الإله ليس مضيعة للوقت. ولكن بلا جدوى. فقد كان يعرف العديد من المسيحيين العميان عديمي الأخلاق الذين يدمرون بهجة الحياة ويطاردون معارضيهم؛ لم يكن يتسنى له أبدًا رؤية الحقيقة التي يخفوها".

ومع ذلك، تؤمن **تيت** أن **راسِل** كانت "حياته برمتها، بحثًا عن الله... في مكان ما في عقل والدي، في أعماق قلبه، بين تلافيف روحه، كان هناك فراغ؛ لم يملأه قبل ذلك إلا الإله، ولم يجد شيئًا آخرًا يملأه به". كان لديه "إحساس بعدم الانتماء، كما لو كان شبحا، لا يمتلك مأوي في هذا العالم".[١١] وفي فقرة مؤثرة، قال **راسِل** ذات مرة "لا شيء يمكن أن يخترق عزلة قلب الإنسان، إلا أشد درجة من هذا الحب الذي يدعو له المعلمين الدينيين".[١٢] ستواجه صعوبة لتعثر على أي فقرة عند **دوكينز**، تشبه هذه من بعيد حتى.

بالعودة إلى قصة "ارتداد" **فلو**، ربما لم يتضح أبدا **لدوكينز** أن الفلاسفة —سواء كانوا عظماء أو غير معروفين، صغارًا كانوا أو كبارًا— يغيرون آرائهم استنادا على الأدلة والبراهين. ربما سيحبط من كونهم "حريصون بشكل مفرط أن يتحرروا من الوهم إذا تطلب المنطق ذلك". لكن مرة أخرى هم ينقادون بالمنطق، وليس بالخوف من الارتداد.

كان **راسِل** على وجه الخصوص مولعاً جدًا بالارتداد، حتى أن **تشارلي برود** (فيلسوف بريطاني مشهور) علق ذات مرة: "كما نعرف جميعًا، ينتج السيد **راسِل** نظاما فلسفيا جديدا كل بضع سنوات".[١٣] هناك أمثلة أخرى لفلاسفة غيروا آرائهم بناء على الأدلة. فقد لاحظنا أن الفيلسوف **إير** تنصل من منهج الوضعية في شبابه. مثال آخر على شخص خضع لمثل هذا التغيير الجذري وهو **چون فندلي**، الذي ذكر في كتاب فلو (**مقالات جديدة في اللاهوت الفلسفي**)[١٤] المنشور ١٩٥٥م، أنه يمكن دحض وجود

الله؛ إلا أنه رجع عن رأيه في كتابه (**الصعود إلى المطلق Ascent to the Absolute**) المنشور ١٩٧٠م. في هذا الكتاب وكتب لاحقة، جادل **فندلي** على أن العقل والمنطق والبصيرة والمشيئة جميعهم يجتمعون في الإله، القائم بذاته، الذي يستحق وحده العبادة وتكريس الذات غير المشروط.

تعد حجة **دوكينز** (إن أمكن تسميتها بذلك) عن "كبر السن" شكل غريب من مغالطة الشخصنة التي ليس لها مكان في الحوار الحضاري. يقيّم المفكرون الحقيقيون الحجج ووزن الأدلة بدون الالتفات إلى عرق أو جنس أو عمر الخصم.

هناك سمة متكررة في كتاب **دوكينز**، وفي كتب بعض من هؤلاء "الملحدين الجدد"، وهي الادعاء بأنه لا يوجد عالم جدير بالاحترام يؤمن بوجود إله. فسر **دوكينز** مثلا تصريحات **أينشتاين** عن الإله كإشارة مجازية للطبيعة. ويقول إن **أينشتاين** نفسه في أحسن الأحوال ملحد (مثل **دوكينز**) وفي أسوء الأحوال حلولي. لكن نسبة ذلك **لأينشتاين** هو تضليل واضح. استشهد **دوكينز** بالاقتباسات التي تظهر فقط نفور **أينشتاين** من الأديان النظامية الموحى بها، فليس فقط تعمد ترك تعليقات **أينشتاين** عن إيمانه "بعقل فائق" و"قوة مفكرة فائقة" عاملة في قوانين الطبيعة، ولكن أيضا إنكار **أينشتاين** تحديدًا لكونه حلولي أو ملحد (تم تصحيح هذا التشويه المتعمد في هذا الكتاب).

في الآونة الأخيرة، عندما سئل أثناء إحدى زياراته للقدس إن كان يعتقد في وجود إله، أجاب الفزيائي النظري الشهير ستيفن هوكينج بأنه "يؤمن بوجود الإله، لكن هذه القوة الإلهية أسست قوانين الطبيعة والفيزياء وبعد ذلك لم يتدخل للتحكم في العالم".[١٥] بالطبع، العديد من العلماء العظماء في العصر الحديث مثل هايزنبرج وبلانك يؤمنون بعقل سماوي لأسباب عقلانية. هذا أيضا يفضح رواية **دوكينز** للتاريخ العلمي.

في الواقع، ينتمي **دوكينز** إلى نفس نادي كتاب تبسيط العلوم مثل كارل **ساجان** وإسحاق **عظيموف** من الجيل السابق. رأى هؤلاء المبسطون أنفسهم ليس فقط مجرد كتبة، ولكن ككهنة عليا. ومثل **دوكينز**، أخذوا علي أعتاقهم، ليس فقط تثقيف العامة بما وصل إليه العلم، لكن أيضًا تحديد ما إذا كان يجوز للمخلصين للعلم أن يؤمنوا بالأمور الميتافيزيقية أم لا. لكن دعونا نكون واضحين، رأى العديد من العلماء العظام وجود صلة مباشرة بين أعمالهم العلمية وتوكيدهم على وجود "عقل فائق"؛ عقل الإله. افهمها كما تشاء، لكن هذه هي الحقيقة الواضحة التي لا يمكن لمبسطي العلوم بأجنداتهم إخفاءاها. في الحقيقة قال أينشتاين عن الوضعية "أنا لست وضعي. تقول الوضعية بأن ما لا يمكن ملاحظته غير موجود. هذا المفهوم لا يمكن الدفاع عنه بشكل علمي، حيث أنه من المستحيل إعطاء إثباتات قاطعة لما يمكن أو لا يمكن للناس ملاحظته. يمكن للمرء أن يقول "الموجود هو ما نلاحظه فقط"، لكن ذلك خطأ واضح".[١٦]

يتعين على مبسطي العلوم تجهيز حجج تدعم آراءهم الإلحادية الخاصة، إذا كانوا يريدون الصد عن الإيمان بالإله. نادرا ما يحاول مبشرو الإلحاد اليوم الجدال من أجل حججهم في هذا الصدد. بدلًا من ذلك، يوجهون أسلحتهم تجاه الانتهاكات المعروفة في تاريخ الأديان الرئيسية في العالم. لكن التجاوزات والفظائع التي ارتكبت باسم الأديان النظامية ليس لها علاقة على الإطلاق بوجود الإله، كما أن خطر انتشار الأسلحة النووية ليس لها تأثير على ما إذا كانت الطاقة هي حاصل ضرب الكتلة في مربع سرعة الضوء أم لا ($E = mc^2$).

إذن، هل الإله موجود؟ ماذا عن حجج الملحدين القديمة والجديدة؟ وما تأثير العلم الحديث على هذا الشأن؟ وللصدفة المذهلة، في هذه اللحظة تحديدا من تاريخ الفكر، عندما عادت الوضعية القديمة بثوبها الجديد، نفس المفكر الذي ساعد في إنهاء سيطرتها منذ نصف قرن، عاد مرة أخرى لأرض معركة الأفكار، للإجابة على هذه الأسئلة ذاتها.

مقدمة

مذ أُعلنَ تحولي للربوبية*؛ طُلب مني في العديد من المناسبات توضيح الأسباب التي دفعتني لتغيير رأيي. في عدد قليل من المقالات اللاحقة، وفي المقدمة الجديدة من كتاب (الإله والفلسفة) طبعة سنة ٢٠٠٥م، أشرت إلى بعض الأعمال الحديثة المتصلة بالنقاش المتجدد عن الإله، لكنني لم أسهب كثيراً في توضيح وجهة نظري، لكن قناعتي الحالية؛ أن أقدم ما يمكن أن يطلق عليه شهادتي، وقراري الأخير، باختصار؛ وكما يقول العنوان: أؤمن حاليًا أن هناك إله!

لم يكن العنوان الفرعي (كيف غير أشرس ملاحدة العالم أفكاره؟) من ابتكاري، لكنه أحد الأشياء التي أسعدني توظيفها، إذ إن ابتكار، وتوظيف العناوين الملائمة —بل اللافتة—؛ كان بالنسبة لآل فلو أحد التقاليد العائلية، فوالدي اللاهوتي (مثلا)، قام بتحرير مجموعة من المقالات الجدلية —من كتابته وبعض تلامذته السابقين— تحت عنوان (كاثوليكية البروتستانتية The Catholicity of Protestantism)؛ ورغم تناقض العنوان ظاهريًا، إلا أنه مناسب تمامًا، ومخبر حقًا عن محتواه الجدلي.

ونسجًا على منواله في طريقة العرض —وليس في الاعتقاد—؛ نشرتُ في زمني أوراقًا بعناوين مثل؛ (المصلحون لا يعملون صالحا؟ Do–gooders Doing No Good)، و(هل رهان باسكال هو المراهنة الوحيدة المضمونة؟ Is Pascal's Wager the Only Safe Bet).

وفي مستهل الحديث؛ هناك شيء ينبغي أن أزيل عنه اللبس، فعندما انتشرت تقارير تغيير فكري؛ عن طريق وسائل الإعلام، والإنترنت واسع الانتشار، تسرع بعض المعلقين

* منهج الإيمان بوجود الخالق دون الإيمان بصحة الأديان.

زاعمًا أن تقدمي في العمر له صلة بهذا "التحول". لقد قيل أن الخوف تمركز بقوة في عقلي، وتلك الانتقادات خلُصت إلى أن توقعاتي بقرب انتقالي إلى الحياة الآخرة؛ دفعتني للتحول على فراش الموت. وواضح أن هؤلاء الناس لم يكونوا على اطلاع بكتاباتي المُنكِرة وجود الآخرة، ولا حتى على آرائي الحالية عن الموضوع. فعلى مدار أكثر من خمسين سنة، لم يكن إنكاري للإله فقط، بل وجود الأخرة كذلك. فمحاضراتي في (جيفورد Gifford Lectures) التي نشرت تحت عنوان (منطق الفناء The Logic of Mortality)؛ مثلت الذروة في معالجة هذه الفكرة، تلك المنطقة الوحيدة التي لم أغير رأيي فيها. فمع غياب الوحي الخاص –وهو مفهوم أجاد تقديم احتماليته في هذا الكتاب (توماس رايت N. T. Wright)– لم أكن لأفكر بنجاتي* من الموت. ولذلك أريد وضع حدٍ لكل الإشاعات التي أظهرتني كما لو كنتُ أُطبق مراهنة باسكال.

إضافة إلى ذلك، أوضح أنها لم تكن المرة الأولى التي أغير فيها رأيي بخصوص قضية جوهرية، فمثلا –من بين أشياء أخرى–؛ ربما يتفاجأ القراء العارفين بدفاعي الحادّ عن الأسواق الحرة؛ حين يعلمون أني كنت ماركسيا (للتفاصيل انظر الفصل الثاني لهذا الكتاب)؛ إضافة إلى ذلك، تراجعت عن رأيي السابق –منذ أكثر من عقدين– أن كل اختيارات الإنسان محددة كليًا بالأسباب المادية.

ولما كان هذا كتابٌ يوضح سبب تغَير رأيي في وجود الإله، فمن البديهي أن يسأل عما كنت أعتقده قبل "التغيير" ولماذا؟؛ الفصول الثلاثة الأولى تسعى للإجابة عن هذا السؤال، أما آخر سبعة فصول فتشرح اكتشافي للإله؛ و في إعداد آخر سبع فصول، ساعدتني المناقشات مع البروفيسور (ريتشارد سوينبرن Richard Swinburne) –الرئيس

* يوضح فلو هنا سخافة الادعاءات التي انتشرت بعدما أعلم إيمانه بوجود الإله، إن كان لا يؤمن بوجود الآخرة ولا يؤمن بالوحي، فمن أي شيء سيخاف على نفسه بعد الموت؟

السابق لكرسي نولوث– كثيراً، والبروفيسور (براين ليفتاو Brian Leftow)، الرئيس الحالي للمنصب ذاته في جامعة أكسفورد.

هناك ملحقين آخر الكتاب؛ الملحق الأول تحليل لما يسمى بالإلحاد الجديد لـ(ريتشارد دوكينز Richard Dawkins) وآخرون، بقلم (روي إبراهام ڤارجيس Roy Abraham Varghese)، والملحق الثاني نقاش مفتوح لموضوع ذي أهمية قصوى لمعظم المؤمنين بالأديان؛ هل وجد أي نوع من الوحي الإلهي في التاريخ البشري؟ مع عناية خاصة بالادعاءات التي قدمها يسوع الناصري. وفي سبيل إثراء الحوار؛ تفضل الباحث في العهد الجديد (نيكولاس توماس رايت N. T. Wright) –الأسقف الحالي لدورام Durham– بتقديم تقييمه لهيكل الحقيقة التاريخية التي تُشكل عقائد المسيحيين المؤلهين في إيمانهم بيسوع. في الحقيقة أرغب في التوضيح هنا أن الأسقف رايت قدّم أفضل طرحٍ رأيته على الإطلاق لقبول المسيحية كديانة.*

ربما شيء ما ينبغي أن يقال عن شراستي كملحد، كما أشير لذلك في العنوان الفرعي. فقد كانت أولى أعمالي المعادية للإله؛ ورقتي البحثية سنة ١٩٥٠م (**علم اللاهوت والتزييف**). تلك الورقة أعيدَ طباعتها تحت عنوان (مقالات جديدة في اللاهوت الفلسفي) سنة ١٩٥٥م، وهي مُخْتارات حرّرتها بالاشتراك مع (أليسدير ماك إنتاير Alasdair MacIntyre)، وكانت بمثابة محاولة لقياس مدى تأثير ما كانت تسمى آنذاك "الثورة في الفلسفة" على الموضوعات اللاهوتية. من الأعمال الرئيسية التالية كان كتاب (الإله والفلسفة) الذي نشر أول مرة في ١٩٦٦م، وأعيد إصداره سنة ١٩٧٥م و١٩٨٤م و٢٠٠٥م. في مقدمة طبعة ٢٠٠٥م، كتب (بول كِرتس Paul Kurtz) –أحد أهم

* هذا الملحق سيكون عبارة عن مناظرة إسلامية مسيحية، ليرى القارئ كيف يفشل أفضل طرح قدمه مسيحي –على حد تعبير فلو– في إثبات العقيدة المسيحية، مع استعراض مختصر لأدلة العقيدة الإسلامية.

الملحدين البارزين في عصرنا، وصاحب كتاب (بيان الهيوماني ٢ Humanist Manifesto II)–: "يسر دار (بروميثيوس بوكس Prometheus Books) أن تقدم ما يعتبر الآن من كلاسيكيات فلسفة الأديان". كتاب (الإله والفلسفة) تبعه كتاب (افتراض الإلحاد The Presumption of Atheism) في سنة ١٩٧٦م، ونشر تحت عنوان (الإله والحرية والخلود God, Freedom and Immortality) في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٨٤م. وأعمال أخرى ذات صلة، مثل: السلسلة الأولى والثانية لـ (فلسفة العقيدة والمنطق واللغة لدى هيوم Hume's Philosophy of Belief and Logic and Language)، و(مدخل للفلسفة الغربية: الأفكار، والجدليات منذ أفلاطون إلى سارتر An Introduction to Western Philosophy: Ideas and Arguments from Plato to Sartre)، و(التطور الداروينيDarwinian Evolution)، و(منطق الفناء The Logic of Mortality).

من المفارقات حقًا؛ أن أولى حججي الإلحادية قُدمت في البداية خلال إحدى المنتديات المنعقدة بنادي سقراط، برئاسة أعظم مدافعي الدين المسيحي في القرن المنصرم (سي إس لويس C. S. Lewis). ومن المفارقات الأخرى أيضا، أنه على الرغم من كون والدي أحد كبار كتاب، وواعظي الطائفة الميثودية في إنجلترا، إلا أنني لم أكن أهتم بداية حياتي أن أصبح كاتبًا وفيلسوفًا محترفًا مثله.

ومعلوم أن الأشياء الجيدة –إن لم تكن كل الأشياء بلا استثناء– ستؤول ضرورة إلى نهاية، سأُنهي كلماتي الاستهلالية هنا. لأترك المجال للقارئ يستشف الأسباب التي دفعتني إلى تغيير رأيي في مسألة الإله.

Antony Flew

القسم الأول

إنكاري للإله

الفصل الأول
تشكل الملحد

الفصل الأول
تشكل الملحد

لم أكن دائمًا ملحدًا، فلقد بدأت حياتي متدينًا، إلى درجة ما، ونشأت في بيت مسيحي ملتزم، والتحقت بمدرسة مسيحية خاصة، في الحقيقة؛ أنا ابن لواعظ.

كان أبي ثمرة كلية (ميرتن Merton) بجامعة أكسفورد، وكاهنًا للكنيسة الميثودية الويزلية*، بدلًا من الكنيسة الرسمية؛ كنيسة إنجلترا. ومع ذلك بقي قلبه معلقًا بالإنجيلية† —أو كما يقولها الإنجيليون: معلقًا بأعمال الأبرشية—. ذكرياتي السابقة عنه أثناء عمله محاضرًا في دراسات العهد الجديد في (الكلية اللاهوتية الميثودية Methodist theological college) في كيمبردج، ثم خلَف رئيس تلك الكلية فيما بعد، وأخيرًا تقاعد ومات في كيمبردج. إضافة إلى الواجبات الأكاديمية والتعليمية الأساسية لهذه المناصب، أخذ والدي على عاتقه العمل بجهد كبير كممثل للميثودية في مختلف (المنظمات الكنسية Interchurch Organizations)، ورأس (مؤتمر الميثودية The Methodist Conference) لمدة سنة واحدة، و(المجلس الفيدرالي للكنيسة الحرة Free Church Federal Council).

قد يشق عليّ جدًا أن أحدد أو أستبعد أي علامات في صباي أدت لقناعاتي الإلحادية اللاحقة، ففي شبابي التحقت بمدرسة (كينجزوود Kingswood) بمدينة (باث

* الميثودية: طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة.

† الإنجيلية: حركة دينية مسيحية تتبناها جماعات من المحافظين البروتستانت، تتميز تعاليمها بالتشديد على المعنى الحرفي لنصوص الكتاب المقدس، الذي تعتبره المصدر الوحيد للإيمان المسيحي.

Bath) –وتُعرف اختصارًا (K.S)–، وكانت ولحسن الحظ ما تزال مدرسة داخلية حكومية (مؤسسة من النوع الذي يوصف في أي بلد يتحدث الإنجليزية –للمفارقة– بأنها مدرسة داخلية خاصة). أسسها (چون ويزلي John Wesley) مؤسس الكنيسة الميثودية لتعليم أبناء وعاظه، وتم تأسيس مدرسة (كوينزوود Queenswood) بعدها بقرن أو يزيد، لتعليم بنات وعاظ الميثودية، في خطوة مساواتية* ملائمة.

دخلتُ مدرسة كينجزوود مسيحيًا ملتزمًا حي الضمير، ولكن غير متحمس. فلم أستطع قط رؤية أية غاية من العبادة، ولم أكن –إلى درجة بعيدة جدًا– موسيقيًا حيث يمكنني الاستمتاع أو المشاركة في غناء الترانيم، ولم يكن لدي شغف بالاطلاع على الأدب الديني قط، بقدر شغفي الذي استنفد وقتي بمطالعة كتب السياسة، والتاريخ، والعلم؛ وغالبًا في أي موضوع آخر. كان الذهاب إلى المصلى، أو الكنيسة، أو أداء الصلاة، وكل الممارسات الدينية الأخرى بالنسبة لي؛ التزامات ثقيلة ومُضْجِرة نوعًا ما. فلم أكن أشعر بالرغبة في التواصل قط مع الرب.

لا أستطيع استنادًا إلى ذكرياتي الماضية تفسير سبب عزوفي بشكل عام عن الممارسات والقضايا الدينية، التي شكلت –تمامًا– عالم والدي. ببساطة؛ لا أتذكر أنني شعرت يومًا باهتمام أو ولع نحو إقامة تلك الشعائر، ولا بأن عقلي مفتون أو قلبي دافئ –بطريقة استثنائية– عند استخدام عبارة ويزلي المشهورة في الدراسة، أو العبادات المسيحية. سواء كان افتقادي للحماسة تجاه الدين في شبابي سببًا، أو نتيجة، أو الاثنين معًا، من يمكنه أن يقرر؟ لكن ما يمكنني قوله: أنه أيا كان الإيمان الذي كان بداخلي حين التحقت بمدرسة كينجزوود، قد تلاشى قرب تخرجي منها.

---

* المساواتية: اتجاه فكري في الفلسفة السياسية، يؤمن بأن جميع البشر متساوون في القيمة الجوهرية أو الحالة الاجتماعية. (وفقًا لموسوعة ستانفورد للفلسفة)

نظرية التراجُع

أُخبِرتُ أن (بارنا جروب Barna Group) –مؤسسة مسيحية بارزة يرتكز عملها على الاستطلاع الديموغرافي– قامت بدراسات استقصائية أفضت نتائجها إلى أن ما تؤمن به مبدئيًا حين بلوغك الثالثة عشر من عمرك هو نفسه ما سوف تموت عليه، وسواء كانت تلك النتيجة صحيحة أم لا؛ فأنا أعلم أن المعتقدات التي كونتها خلال السنوات الأولى في شبابي ظلت معي غالبية حياتي بعد سن الرشد.

لا أستطيع تمامًا أن أتذكر على وجه الدقة كيف ومتي بدأ التحول. لكن بالتأكيد، وكأي إنسان مفكر، اجتمعت عوامل متعددة في تشكيل قناعاتي، ليس الأقل من بين هذه العوامل، ما سماه (إيمانويل كانت Immanuel Kant) "نهم العقل الملائم للتعلم" والذي أعتقد أني كنت أتشاركه مع والدي. فكلانا وضِع لاتباع طريق الحكمة التي قال عنها (كانت): "هي الحكمة التي لها أهلية اختيار –من بين مشكلات لا متناهية تطرح نفسها– المشكلات التي حلها هام للبشرية". قناعات والدي المسيحية، جعلته يرى استحالة وجود أي شيء "أكثر أهمية للبشرية" من إبانة، ونشر، وتطبيق –لأي ما هو بحق– تعاليم العهد الجديد. وبالطبع وجهتني رحلتي الفكرية إلى اتجاه مختلف، لكنه لم يكن أقل اتصافًا بنهم العقل الذي شاركته مع أبي.

أتذكر أيضا أن أبي أخبرني –بشكل نفعني كثيرًا– في عدة مناسبات أنه عندما يريد المتخصصون في الكتاب المقدس أن يحيطوا علمًا ببعض المفاهيم الغريبة في العهد القديم؛ لا يحاولون العثور على الإجابة ببساطة من خلال التفكير فيها منفردة، فبدل ذلك يقومون بجمع وتحقيق كل ما يستطيعون إيجاده من الأمثلة المتاحة المعاصرة، من أجل توظيف الكلمة العبرية ذات الصلة. هذا النهج البحثي شكّل –بأكثر من طريقة– الأساس لاستطلاعاتي الفكرية الأولى، وهو أمر لم أتخل عنه إلى الآن؛ جمع وتحليل كل المعلومات ذات الصلة بمادة

معينة. ولعل من المفارقات، أن البيئة الأسرية التي ترعرعت فيها —على غالب الظن— غرست فيّ الاهتمام بالمباحثات النقدية التي أدت بي في نهاية المطاف إلى رفض معتقد أبي والتحول عنه.

وجه الشر

لقد ذكرت في بعض كتاباتي الإلحادية المتأخرة، أنني توصلت إلى استنتاج عدم وجود الإله بتسرع وعجلة —أكثر مما ينبغي— ولأسباب بدت لي فيما بعد أنها مغلوطة. مع أنني أعدت النظر مرارًا في هذا الاستنتاج —السلبي— وتلك الأسباب، متوسعا في دراستها. لكن إلى ما يقرب من سبعين سنة بعد ذلك لم أجد أسبابًا كافية، أو أرضًا صلبة تدفعني لتسويغ أي تراجع جوهري عن فكري الإلحادي. واحد من هذه العوامل المبكرة لاعتناقي الإلحاد كانت مشكلة الشر.

كان أبي يصحبني أنا ووالدتي في رحلات سنوية إلى لخارج أثناء إجازة الصيف، ومع أن ذلك لم يكن زهيد التكلفة بالنسبة إلى راتب كاهن، إلا أنه كان ممكنًا؛ لأن والدي كان يقضي الفترة الأولى من الصيف ممتحنًا في امتحانات الشهادة العليا —تسمي الآن بامتحانات المستوي المتقدم (A–level)— إذا كانت مدفوعة الأجر، كما كنا قادرين على السفر إلى لخارج بأسعار زهيدة، لأن أبي كان فصيحًا في اللغة الألمانية بعد سنتين قضاهما في دراسة لاهوتية في (جامعة ماربرج University of Marburg) قبل الحرب العالمية الأولى، ولذلك كان قادرًا على اصطحابنا في العطلات إلى ألمانيا، ومرة أو مرتين إلى فرنسا، دون الاضطرار إلى إنفاق الكثير على وكيل للسفريات. عُين والدي كذلك ممثلًا للميثودية في العديد من المؤتمرات اللاهوتية الدولية، التي أخذني معه إليها لأني ولده الوحيد، وأمي بصفتها ضيفة غير مشاركة.

كانت لتلك الرحلات الأولى للخارج خلال سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية

عظيم الأثر علي، أتذكر جيدًا اللافتات والشارات خارج المدن الصغيرة معلنة أن: "اليهود غير مرغوب في وجودهم هنا". أتذكر الشارات على مدخل مكتبة عامة مصرحة أن: "اللائحة التنفيذية لتلك المؤسسة تمنع منح أي كتب لمستعيرين يهود". لاحظت مسيرة من عشرة آلاف من قوات العاصفة أصحاب القمصان البنية في إحدى الليالي الصيفية الباڤارية*، مكنتني رحلات العائلة من رؤية كتائب (ڤافن إس–إس Waffen S–S) بزيهم الأسود، وقبعاتهم ذات الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين.

مثل هذه التجارب؛ رسمت خلفية شبابي، بالنسبة لي –كما هو بالنسبة للكثير– أوجدت تحديًا لا فكاك منه مع فكرة وجود إله المحبة كلي القدرة، لا أستطيع قياس درجة تأثيرها على تفكيري؛ لكن تلك التجارب –إن لم يكن غيرها– أثارت الوعي الدائم في داخلي بالشرين المتلازمين (معاداة السامية) و(التوتاليرية).†

مكان مفعم بالحيوية

العيش في أجواء الثلاثينيات والأربعينيات مع أسرة كأسرتي، منحازة للطائفة الميثودية، كان يجب أن يكون في كيمبردج وليس خارجها. كبداية؛ لم يكن علم اللاهوت وقتها يقبل هناك كملك العلوم، كما هو الحال في مؤسسات أخرى، وكذلك لم تكن كلية التدريب الكهنوتية نوعًا من الجامعات المقبولة. ونتيجة لهذا، لم يكن هناك أي رابط بيني وبين كيمبردج، رغم أن والدي أحس بأنها بيته، على أية حال، منذ ١٩٣٦م عندما التحقت بالمدرسة الداخلية، كنت غالبًا خارج كيمبردج أثناء الدراسة.

---

* باڤاريا: إحدى الولايات الاتحادية الستة عشر المكونة لجمهورية ألمانيا الاتحادية.

† التوتاليرية: مفهوم يستعمله علماء السياسة لوصف الدولة التي تحاول فرض سلطتها على المجتمع وتعمل على السيطرة على كافة جوانب الحياة الشخصية والعامة قدر إمكانها.

ورغم ذلك، كانت كينجزوود تعد في زمني مكانًا مفعما بالحيوية، وكان يترأسها رجل يستحق بكل تأكيد أن يتم تقييمه بأنه واحد من مديري المدارس العظام، فقبل مجيئي بسنة؛ فازت المدرسة بجوائز (أوبن أوُردز Open Awards)* في أكسفورد وكيمبردج أكثر من أي مدرسة في (مؤتمر مديرين المدارس Headmasters' Conference)، كذلك لم تكن حيويتنا منحصرة داخل الفصول والمعامل.

لا ينبغي أن يستغرب أحد من كون وجودي في بيئة حماسية، جعلتني أرتاب في عقيدة والديّ الراسخة، فهي عقيدة لم أشعر تجاهها بأي نوع من الارتباط العاطفي، عند صعودي إلى لصف السادس الأعلى، في مدرسة كينجزوود —الصف السادس الأصغر يقابل الصف الحادي عشر في أمريكا والسادس الأعلى يقابل الصف الثاني عشر—؛ بدأت المجادلة بصورة منتظمة مع زملاء الصف السادس في فكرة أن كون الإله مطلق القدرة وكلي المحبة غير متسقة مع الشر الواضح والعيوب التي في العالم. وعلى أيامي في كينجزوود لم تتضمن خطب الأحد المعتادة أي إشارة لحياة أخرى سواء في النعيم أو الجحيم. وحين يكون مدير المدرسة (ألفريد بارت ساكت A. B. Sackett) هو الذي يعظ —الأمر الذي كان نادرًا— كانت رسالته دومًا تنصب عن عجائب وروائع الطبيعة؛ على أية حال، حينما وصلت إلى الخامسة عشر، رفضت أطروحة أن الكون خلقه إله مطلق القدرة كلي المحبة.

قد يسأل أحد هل قمت بالتشاور مع والدي الكاهن فيما يراودني من شكوك حول وجود الله؟ لم أفعلها أبدًا؛ من أجل الاستقرار الأسري، وتحديدًا كي أتلاشى والدي، حاولت قدر استطاعتي، أن أخفي عن جميع من في البيت تحولي إلى اللادينية إلى أطول فترة ممكنة. وقد نجحت في هذا، على حد علمي، لعدة سنوات.

بحلول يناير سنة ١٩٤٦م، حينما قاربت من الثالثة والعشرين، انتشر خبر كوني

* مؤسسة قومية بريطانية تقيم أداء المؤسسات التعليمية وتمنحها جوائز.

ملحدًا دهريًا (غير مؤمن بحياة بعد الموت)، ووصل الخبر إلى والديّ، وكان مستبعدًا وجود أي سبيل للعودة، فقد كان تحولي كليًا وصارمًا، وبالتالي اعتُقِدَ أنه لا جدوى من الدخول في نقاش حول هذا الأمر في البيت. ومع ذلك؛ أستطيع اليوم —بعد أكثر من نصف قرن— أن أقول إن والدي كان سيفرح جدًا برأيي الحالي في مسألة وجود الله؛ لأسباب ليس أقلها أنه كان سيعتبر الأمر في صالح قضية الكنيسة المسيحية.

أكسفورد مختلفة

بعد تخرجي من مدرسة كينجزوود التحقت بجامعة أكسفورد. وصلت إلى أكسفورد في فصل هيلاري —من يناير إلى مارس سنة ١٩٤٢م، كانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب، وفي يوم من أيامي الأولى وأنا طالب جامعي في الثامنة عشر، خضعت للكشف الطبي وجندت رسميًا في سلاح الجو الملكي، خلال أيام الحرب تلك، كان لزامًا على كل طالب جامعي ذَكَر لائق جسديًا قضاء يوم من كل أسبوع خلال فترة الفصل الدراسي في الخدمة في المؤسسة المناسبة، وفي حالتي، كان سرب سلاح الجو لجامعة أكسفورد.

كانت هذه الخدمة العسكرية التي كانت براتب جزئي لسنة وبراتب كامل بعد ذلك غير قتالية تمامًا. تخللها تعلمي لليابانية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (كلية تابعة لجامعة لندن) وبعدها عملت مترجمًا لإشارات سلاح الجو الياباني المعترضة، ومفكوكة الشيفرة في (حديقة بلتشلي Bletchley Park) المعروفة أيضا باسم (المحطة إكس Station X). بعد استسلام اليابان (وقتها كنت منتظرًا دوري في التسريح من الخدمة العسكرية) كنت أعمل على فك شيفرات الإشارات المعترضة من جيش الاحتلال الفرنسي المنشأ حينها حديثًا في المنطقة التي سميت لاحقا بألمانيا الغربية.

عندما عدت لاستكمال دراساتي براتب كامل في جامعة أكسفورد في بداية شهر يناير سنة ١٩٤٦م وذلك لاجتياز اختباراتي النهائية صيف سنة ١٩٤٧م، وجدت أكسفورد

التي عدت إليها كانت مكانًا مختلفًا تمامًا. كانت تبدو شيقة أكثر بكثير مما كانت عليه حين تركتها قبل ثلاث سنوات. كان يوجد كذلك المزيد من تنوعات المهن الخاصة بوقت السِلم، والمهن الحربية الحقيقية أصبحت الآن آمنة أكثر مما كانت عليه بعد الحرب العالمية الأولى. أنا شخصيًا كنت أحضر للحصول أخيرًا على درجة أكاديمية في كلية (الأدب الكلاسيكي Literae Humaniores)، بعض من محاضراتي في تاريخ اليونان في العصر الكلاسيكي أعطاها محاربون قدامى كانوا ناشطين في مؤازرة المقاومة اليونانية سواء في كريت أو حتى على الأراضي اليونانية نفسها، مما جعل لتلك المحضرات مذاقًا خاصًا يثير العاطفة والحماسة لدي جمهور الطلاب الجامعيين.

خضت اختباراتي النهائية في الفصل الدراسي صيف سنة ١٩٤٧م. لدهشتي وسعادتي أيضا، حصلت على مرتبة الشرف الأولى "فرست" (First: تعبير دارج في المملكة المتحدة لمن يحصل أكاديميًا على الدرجة الأولى الفخرية). وإثر حصولي على هذا اللقب، عدت إلى (چون مابت John Mabbott)، معلمي الخاص في (كلية القديس چون St. John's College). أخبرته بأني تخليت عن فكرة حصولي على درجة جامعية ثانية من مدرسة الفلسفة وعلم النفس (School of Philosophy and Psychology) المنشأة حينها حديثًا. ونويت الآن أن أبدأ دراساتي العليا في الفلسفة.

تشكل الفيلسوف

نسق مابت لي لأباشر دراساتي الفلسفية العليا تحت إشراف (جلبرت رايل Gilbert Ryle)، الذي كان حينها بروفيسورا في الفلسفة الميتافيزيقية في جامعة أكسفورد. خلال الفصل الدراسي الثاني من السنة الدراسية ١٩٤٧–١٩٤٨م، كان رايل رئيسًا لأقسام الفلسفة الثلاثة بجامعة أكسفورد.

بعد مرور عدة سنوات علمت من خلال كتاب مابت الأَخَّاذ (ذكريات أكسفورد

Oxford Memories) كم كان مابت ورايل أصدقاء منذ أن تقابلا أول مرة في أكسفورد، ولو أني كنت في كلية مختلفة وسئلت عن الأفضل من بين ثلاثة مشرفيين محترفين متضلعين، لكنت بالتأكيد أخترت (هنري پرايس Henry Price) ذلك لأنني أشاركه نفس الاهتمام بما يعرف الآن بعلم الپاراسايكولوجي لكن وقتها كان ما يزال يعرف باسم البحث الروحي. ومنذ صدور كتابي الأول بعنوان (منهج جديد للبحث الروحي A New Approach to Psychical Research) أصبحت أنا وهو نحاضر معًا في اللقاءات والندوات المختلفة. ورغم ثقتي بأنه لو كان (هنري پرايس) هو من أشرف على دراستي، لما حصلت على جائزة الجامعة في الفلسفة في هذا العام الثقيل الاستثنائي، لكن كنا سنتمكن من أن نمضي أوقاتًا أطول في الحديث عن اهتماماتنا المشتركة.

بعد تكريس العام الدراسي ١٩٤٨م للقراءة لنيل درجة أكاديمية أعلى في الفلسفة تحت إشراف رايل، حصلت على جائزة الجامعة (منحة چون لوك John Locke Scholarship) –والتي تحدثت عنها قبل قليل– في الفلسفة العقلية. بعد ذلك عينت فيما قد يطلق عليه في أي كلية أخرى في أكسفورد –عدا كلية كنيسة المسيح–؛ زمالة تحت الاختبار، أو بمعنى أخر، وظيفة التدريس براتب كامل. لكن بمفردات كلية كنيسة المسيح، أُعَرَّف بأنني قد أصبحت طالبًا تحت الاختبار.

وخلال سنة تدريسي في أكسفورد، تعاليم الفيلسوف البارز (لودڤيج ڤتجنشتاين Ludwig Wittgenstein)، والذي أثر منهجه الفلسفي في منهجي، دخلت أكسفورد. ورغم أن تعاليمه تلك قد نشرت فيما بعد في كتب مثل (الكتاب الأزرق Blue Book) و(الكتاب البني Brown Book) و(محاضرات في الرياضيات Lectures on Mathematics) إلا أنها وصلتنا على هيئة نسخ مطبوعة على الألة الكاتبة لكل محاضرة على حدة، مصحوبة برسائل من ڤتجنشتاين موضحة لمن يمكن أو لا يمكن أن تعرض هذه

المحاضرة تحديدًا. أنا وزميل عمل في الجامعة استطعنا أن نوجد وسيلة لإصدار نسخ، دون أن أنقض أي وعد مع ڤتجنشتاين، من كل محاضرات ڤتجنشتاين المتوفرة في أكسفورد حينها، لكي يتمكن أي شخص تمنى قراءة هذه المحاضرات من قراءتها بالفعل.

تم بلوغ تلك الغاية الحسنة -أتحدث هنا بمفردات الفلاسفة الأخلاقيين لذلك العصر— عن طريق سؤال كل من نعرف أنه مهتم بالفلسفة في أكسفورد في ذلك الوقت عما إذا كان لديهم أي نسخ مكتوبة من محاضرات ڤتجنشتاين بالآلة الكاتبة، وأي محاضرات تحديدًا. وبما أن ذلك كان قبل اختراع آلة التصوير، وجدنا وحددنا كاتبًا على الآلة الكاتبة لإصدار نسخ كافية بغرض استيفاء الطلب. (لم نكن نعلم أن تداول مثل هذه النسخ الإبداعية داخل أعضاء مجموعة معينة، وفي ظل وعود بالسرية التامة؛ سيحرض أولئك الذين خارج المجموعة للقول بأن ڤتجنشتاين- والذي هو بلا شك فيلسوف عبقري- يتصرف أحيانًا كدجال يتظاهر بالعبقرية.

بدأ رايل التعرف على ڤتجنشتاين، حين زار الفيلسوف النمساوي كيمبردج. بعد ذلك وطد رايل صداقة معه، مما دعي رايل بعد ذلك لإقناع ڤتجنشتاين بالانضمام إليه في جولة سير على الأقدام في منطقة البحيرات الإنجليزية في سنة ١٩٣٠م أو ١٩٣١م. إلا أن رايل لم ينشر أي معلومات عن هذه الجولة ولم ينشر ما الذي تعلمه من أو عن ڤتجنشتاين خلالها. لكن بعد ذلك، منذ ذلك الحين فصاعدًا، أدى رايل دور الوسيط بين ڤتجنشتاين وبين ما يسميه الفلاسفة "العالم الخارجي".

ظهرت أهمية تلك الوساطة حين كشف عن تسجيل لحوار دار بين ڤتجنشتاين —الذي كان يهودي الديانة— وبين شقيقاته، مباشرة بعد أن سيطرت جنود هتلر على النمسا. وفيه طَمْأَنَ شقيقاته بأنهن -بسبب علاقتهن المباشرة مع رجال النظام السابق وعائلاتهم- غير معرضين لا هو ولا هن لأي خطر؛ عندما أصبحت مدرسًا محترفًا في تعليم

الفلسفة، كنت راغبًا في أن أكشف لتلاميذي حقيقة أن ڤتجنشتاين -الذي كنت أنا وزملائي نعتبره فيلسوفًا عبقريًا- كان مشوشًا تمامًا في المسائل العملية.

رأيت ڤتجنشتاين شخصيًا على الأقل مرة أثناء العمل. حين زار (رابطة چويت Jowett Society) وكنت وقتها ما زلت طالبًا. كان عنوان محاضراته الذي أعلن عنه هو (Cogito ergo sum) —وبالطبع ذلك مأخوذ من مبدأ الفيلسوف الفرنسي (رينييه ديكارت René Descartes) المشهور: "أنا أفكر إذن أنا موجود"—. القاعة كانت مكتظة، والجمهور كان حريصًا على التقاط كل كلمة من كلمات الرجل العظيم، لكن الشيء الوحيد الذي أتذكره الآن عن تصريحاته، أنها لم تكن لها أي صلة مفهومة بالموضوع المعلن عنه. لذلك بعد أن انتهى ڤتجنشتاين من كلامه، قام البروفيسور الفخري الإنجليزي (إتش إي پرتشرد H. A. Prichard) —بحنق واضح— وسأله: "سيد ڤتجنشتاين —كان واضحًا أن درجة الدكتوراه من كيمبردج غير معترف بها في أكسفورد— ما الذي تعتقده حيال جملة (أنا أفكر إذن أنا موجود Cogito ergo sum)"؟ وما كان جواب ڤتجنشتاين إلا أنه أشار إلى جبهته بسَبّابَة يده اليمني قائلًا فقط: "(أنا أفكر إذن أنا موجود Cogito ergo sum)"، جملة متميزة جدا". فكرت حينها —وما زلت— أن أفضل جواب سريع لتصريح ڤتجنشتاين هو واحدة من التَعْلِيقات الكاريكاتورية في كتاب (الرجال، والنساء، والكلاب Men, Women and Dogs) لـ(چيمز ثَربر James Thurber): "ربما أنك لست ساحرة لِيلِي، ولكن غموضك فاتن".

احتدام الجدل مع لويس

خلال فترة دراستي وأنا طالب دراسات عليا، وتحت إشراف جلبرت رايل، أصبحت على دراية كافيه بأن أسلوبه الأساسي الواضح هو الرد المباشر، وجهًا لوجه، على أي اعتراض يمكن أن يكون تجاه أية قضية من قضاياه الفلسفية. وحدسي يقول -رغم أن رايل لم يبح

بذلك قط لي، أو لأي شخص أخر على حسب علمي– إنه كان يتبع دائمًا قول أفلاطون الذي ينسبه في كتابه (الجمهورية The Republic) لأستاذه سقراط: "يجب أن نتبع البرهان أينما يقودنا". ذلك المبدأ الذي حاولت أنا شخصيًا أن أسير على دربة طيلة حياتي المثيرة للجدل إلى مدى بعيد.

هذا المبدأ السقراطي شكّل أيضًا مصدر إلهام لمن كان في نادي سقراط، وهي مجموعة كانت في الحقيقة مركز الحياة الفكرية في زمن الحرب في أكسفورد. كان نادي سقراط منتدى نابضًا بالحياة تنعقد فيه المناقشات والمناظرات بين الملحدين والمسيحيين. وكنت أنا واحد من المشاركين المعتادين في اجتماعاته. كان رئيس النادي (في الفترة من ١٩٤٢م إلى ١٩٥٤م) الكاتب المسيحي الشهير (سي إس لويس C. S. Lewis). وكان النادي يعقد لقاءاته مساء الإثنين من كل أسبوع خلال فترة الفصل الدراسي في المباني العامة للطلاب الصغار (JCR) في كلية القديسة هيلدا. وفي مقدمة أول عدد من مجلة (Socratic Digest) استشهد لويس بنصيحة سقراط في أن "نتبع الدليل أينما يقودنا". حيث كان الشعار الذي قام عليه النادي من بعد مشيراً إلى أنها "الساحة، الأولى من نوعها، التي كرست خصيصًا لمناقشة الصراع الدائر بين المسيحيين والملحدين."

احتدم الجدل في أكسفورد بين العديد من الرواد الملاحدة هناك من جهة وبين لويس ورفاقه المسيحيين من جهة أخري. كان الجدال الأكثر شهرة على الإطلاق هو مناظرة فبراير ١٩٤٨م بين لويس و(إليزابيث أنسكوم Elizabeth Anscombe)، والتي جعلت لويس يعيد النظر مرة أخرى ويُعدل في الفصل الثالث من كتابه (المعجزات Miracles). ما زلت أتذكر حينما كنت عائدًا من المناظرة الرائعة مع مجموعة صغيرة من الأصدقاء، سائرين مباشرة خلف إليزابيث أنسكوم وزمرتها، كأنها تستلذ نشوة الانتصار ومن وراءها زمرتها مهللين. وفي المقابل تمامًا كان لويس داعس القدمين وحيدًا مهرولًا نحو غرفته ليأوي إليها داخل (الكلية

المجدلية Magdalen College)، قبالة الجسر الذي كنا جميعًا نعبره.

ورغم أن لويس قد وصِف من قِبل العديد من الأشخاص بالإحباط وضعف العزيمة المتواصل بسبب ما آلت إليه تلك المناظرة من نتائج، إلا أن أنسكوم رأت الأمور بشكل مختلف. حيث كتبت فيما بعد: "اللقاء الذي قرأت فيه أوراقي في نادي سقراط، وصِف من قبل العديد من أصدقائه بأنه مروع وتجربة صادمة أزعجته كثيراً. إلا أن الدكتور هارڤارد دعاني للعشاء أنا ولويس بعد اللقاء بفترة والبروفيسور (جاك بينيت Jack Bennett) لم يتذكرا أيًا من هذه المشاعر تجاه لويس... والحقيقة أنني أميل إلى تفسير غرابة مآل المسألة من قبل بعض أصدقائه... بأنه نموذج يسترعي الانتباه إلى ظاهرة تعرف بالإسقاط".[1]

يعتبر لويس أكبر مناصر للمسيحية في النصف الثاني من القرن العشرين بلا ريب. حين سُئلت مؤخرًا في محطة الإذاعة البريطانية BBC إن كنت أرفض تمامًا كل حجج لويس المناصرة للمسيحية، أجبت: "لا، أنا فقط لم أجد فيها الحجة الكافية للإقناع. ولكن عندما بدأت التفكير بعدها في المسائل اللاهوتية، بدت لي أن حجة الوحي في المسيحية قوية جدا، هذا إن كنت أؤمن بالوحي أصلا".

تطورات إيجابية للغاية

خلال فصلي الدراسي الأخير بجامعة أكسفورد، صدر كتاب (اللغة، والحقيقة، والمنطق Language, Truth and Logic) لـ(ألفرد چولز إير A. J. Ayer) والذي أقنع العديد من رواد نادي سقراط أن البدعة الإيرية المتمثلة في الفلسفة الوضعية المنطقية – الادعاء بأن كل الأطروحات الدينية هي بلا دلالة معرفية– يجب أن تُدحَض. الورقة البحثية الأولى والوحيدة التي ناقشتها أمام النادي كانت بعنوان (علم اللاهوت والتزييف Theology and Falsification) حين قدمت ما اعتبرته لاحقًا ردًا كافيًا. اعتقدت أني حققت انتصارًا تامًا مدويًا إلى درجة أنه لم يدع مجالًا لعقد أي مناظرات أخرى.

كان ذلك أيضا في أكسفورد عندما قابلت وقتها زوجتي المستقبلية (أنِس دونيسِن Annis Donnison). زوجة أخيها هي من عرفتنا إلى بعضنا أول مرة في نادي العمال الاجتماعي في أكسفورد. ومن وقتها لم يلفت انتباهي أي شخص آخر في ذلك المكان غيرها. ويشكل اتفاقي في نهاية ذلك التجمع على ترتيب لقاءات قادمة مع أنِس المرة الأولى في حياتي التي أواعد فيها فتاة. أوضاعنا الاجتماعية في وقت اجتماعنا الأول مختلفة جدًا. كنت أُدرس في كنيسة المسيح (Christ Church)، مؤسسة للرجال فقط، أما أنِس فكانت طالبة في السنة الأولى لها في (سمرڤيل Somerville)، كلية للنساء، وكانت —شأنها شأن جميع الكليات النسائية في جامعة أكسفورد في ذلك الوقت، ولمدة عقد بعد ذلك، وحتى بعد ذلك— تطرد أي طالبة تقترف فعلة الزواج! كان مفهومًا أن تكون أم زوجتي المستقبلية معنية بشأن مواعدة شخص كبير رفيع المستوى أكاديميًا مثلي لابنتها الصغيرة جدًا. لذلك تشاورت مع ابنها —صهري المستقبلي— بشأن الموضوع. وأكد لها أن الأمر بالنسبة لي، كما يمكن أن تتقبله هي: "علاقة حب أو ما شابه"، وقد ينفطر قلبي إن تم إعاقتي أو منعت عن مواصلة تلك العلاقة. لقد كنت أفترض دائمًا أنه كان يريد لأخته أن تُترك لإدارة شؤون حياتها بمفردها، لأنه على علم بحكمتها وثقته في عدم اتخاذها للقرارات المتسرعة.

رغم انصرافي عن عقيدة أبي منذ وقت طويل، مع ذلك، انعكس علىّ ما غرزه والديّ داخلي من القيم الميثودية. فلم أحاول مطلقا إغواء زوجتي أنِس قبل زواجنا، معتبرًا هذا السلوك هو سلوك مشين أخلاقيًا. ولا حتى، كابن رجل أكاديمي، لم أضمر أي فكرة لإقناع أنِس أن تتزوجني قبل أن تحصل على شهادتها الجامعية.

وفي نهاية سبتمبر ١٩٥٠م، توقفت رسميًا عن كوني مدرسًا مؤقتًا في كنيسة المسيح بأكسفورد، لأبدأ بعدها العمل محاضرًا لفلسفة الأخلاق في (جامعة أبردين University Of Aberdeen) بإسكتلندا في أكتوبر من السنة نفسها.

ما بعد أكسفورد

خلال سنوات عملي في أبردين، قمت بعمل العديد من الأحاديث في الراديو، فقد شاركت في ثلاث أو أربع مناقشات كمادة للبحث في عدة تجارب سيكولوجية برعاية BBC البرنامج الثالث؛ رفيع الثقافة الفدائية المؤسس حديثًا وقتئذ. كانت جاذبية أبردين تكمن في لُطف كل فرد قابلناه تقريبًا، قوة وتنوع حركة تعليم البالغين، وحقيقة كون مدينة أبردين في إسكتلندا وليس في إنجلترا —والذي كان جديدًا بالنسبة لنا—، أتاح لنا خيارات متعددة من بينها المشي على الشاطئ وأيضا في جبال (الكيرينجورم Cairngorms)، ولا أتذكر أننا أخفقنا يوما في مشاركة نادي كيرينجورم أي رحلة من رحلاته الشهرية المعتادة إلى تلك الجبال.

خلال صيف عام ١٩٥٤م، سافرت من أبردين، من طريق أمريكا الشمالية، لأصبح أستاذًا في الفلسفة بجامعة (نورث ستافوردشاير University College of North Staffordshire)، والتي سميت فيما بعد (جامعة كيل University of Keele). خلال السبع عشرة سنة التي قضيتها هناك، ظلت جامعة كيل أقرب شيء امتلكته المملكة المتحدة لكليات الفنون الليبرالية في الولايات المتحدة مثل (أوبرلين Oberlin) و(سوارثمورث Swarthmore). وسرعان ما أصبحت متمسكًا بوجودي بها وغادرتها فقط عندما بدأ تميز هذه الجامعة في الانحسار بشكل بطيء لا يمكن مقاومته.

بعد أن أمضيت السنة الدراسية ١٩٧٠—١٩٧١م أستاذًا زائرًا في الولايات المتحدة الأمريكية، استقلت نهاية سنة ١٩٧١م مما أصبحت بعد ذلك (جامعة كيل) -كان (ريتشارد سوينبرن Richard Swinburne) خليفتي في المنصب هناك—. وانتقلت إلى (جامعة كالجَري University of Calgary) في ألبرتا بكندا يناير ١٩٧٢م. كانت نيتي الأولية أن استقر هناك، ومع ذلك بعد ثلاث فصول دراسية فقط في كالجَري، انتقلت

إلى (جامعة ريدنج University of Reading) في مايو ١٩٧٣م حيث مكثت حتى نهاية عام ١٩٨٢م.

وقبل تقديم أي طلب أو تلقي أي تقاعد مبكر من ريدنج، تعاقدت على أن أحاضر فصلًا دراسيًا واحدًا كل سنة في (جامعة يورك York University) في تورونتو خلال الست سنوات المتبقية في حياتي الأكاديمية العادية. وخلال منتصف تلك الفترة، استقلت من جامعة يورك لقبول دعوة مركز السياسة والفلسفة الاجتماعية في جامعة (بولينج جرين ستيت Bowling Green State University) في أوهايو، لكي أعمل ثلاث سنوات زميلًا باحثًا متميزًا. مُدت الدعوة بعد ذلك ثلاث سنوات أخرى. بعد ذلك، استقلت نهائيًا من جامعة ريدنج وحاليًا أنا مقيم بالمدينة ذاتها، ريدنج.

هذا الملخص التخطيطي لمسيرتي المهنية لا يتناول السبب الذي جعلني أصير فيلسوفًا. ويبدو أنه كان مهيأ لي أن أصبح فيلسوفًا محترفًا قبل فترة طويلة من دخولي أكسفورد. نظرًا لاهتماماتي الفلسفية في كينجزوود. وفي ذلك الوقت لم أكن أعرف أن هناك مهنة بالفعل تسمي مختص بالفلسفة. وحتى في أول فصلين دراسيين لي في أكسفورد، قبل التحاقي بسلاح الجو الملكي RAF، أقرب نقطة اتصال لي بالفلسفة كانت في لقاءات نادي سقراط. كانت اهتماماتي الرئيسية خارج دراساتي هي اهتمامات سياسية. ما زال ذلك صحيحا حتى بعد يناير ١٩٤٦م، عندما ضمت المواد التي أدرسها مادة الفلسفة.

بدأت تتضح لي بعيدًا في الأفق إمكانية رؤية الفلسفة مهنة يمكن مزاولتها قبل أشهر من الامتحانات النهائية في ديسمبر ١٩٤٧م. وقلقًا من تحقق مخاوفي بشأن إمكانية وضعي في فصل ٢ لأنه سيترتب على ذلك فصلين دراسيين نهائيين مرة أخرى، وبالتخصص في علم النفس في (مدرسة الفلسفة وعلم النفس School of Philosophy and Psychology) المنشأة حينها حديثًا. فتوجهت مباشرة إلى التسجيل في بكالوريوس

الفلسفة المستحدثة حينها وتحت إشراف جلبرت رايل. بعد تعييني في منحة تلمذة جامعية محاضرًا تحت الاختبار في كنيسة المسيح (نسفت تماما جسور نفسي حيث قطعت طريق العودة على نفسي ولم أجعل لنفسي سوى خيار واحد فقط) ذلك بعد أن رفضت عرضًا بالانضمام إلى (الفئة الإدارية للخدمات المدنية الرئيسية Administrative Class of the Home Civil Service) قرار ندمت عليه حتى تلقيت عرضًا من جامعة أبردين في الأسابيع النهائية من عام ١٩٤٩م.

وفي الفصلين القادمين سأحاول أن أُفَصِّل الحجة التي بنيتها على مر السنين ضد وجود الإله. سأخوض أولًا في نصف قرن من حجج الملحدين جمعتها وطورتها، ثم أشرع في الفصل الثالث، بتعقب مختلف التحولات والانعطافات التي طالت فلسفتي، خاصة وأنه يمكن أن تُعد خلال مناظراتي المتواترة حول موضوع الإلحاد.

خلال كل ذلك، آمل أن ينظر إلى اهتمامي الطويل بالدين –كما قلت في الماضي– لم يكن إلا اهتمامًا حكيمًا، وأخلاقيًا، أو ببساطة فضولي. أقول حكيم لأنه إذا كان هناك إله أو آلهة يقحمون أنفسهم في شؤون البشر، فمن الحماقة الجنونية عدم محاولة إطاعتهم –قدر الإمكان– والبقاء في جانبهم الصحيح. وأقول إن اهتمامي كان أخلاقيًا؛ نظرًا لأنه يجب أن أكون سعيدًا حين أجد ما قال عنه (ماثيو أرنولد Matthew Arnold) ذات مرة: "الأبدي، ليس نحن، الذي يتجه إلى البر".* وأقول كان اهتمامي فضوليًا؛ لأن أي شخص ذو عقلية علمية يجب أن يريد اكتشاف ما –إن لم يكن كل– يمكن معرفته عن هذه الأمور. ومع ذلك، لا يمكن أن يكون هناك أي شخص آخر أكثر مفاجأة مني، إذ إن بحثي عن الإله بعد كل هذه السنوات تحول من الإنكار إلى الاكتشاف.

* صفات (الأبدي) و(ليس نحن) هي صفات للإله في كتابات الْمُصلِح الإنجليزي ماثيو أرنولد.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفهرس

مقدمة الناشر

مقدمة المترجمة ٩

أنتوني فلو وجدلية (النص) و(الشخص) ١٠

مقدمة الكتاب

تمهيد ١٤

مقدمة ٢٧

القسم الأول
إنكاري للإله

الفصل الأول: تشكل الملحد ٣٣

الفصل الثاني: إلى حيث يقودنا الدليل ٥١

الفصل الثالث: التفكير في الإلحاد بهدوء ٧٨

القسم الثاني
اكتشافي للإله

الفصل الرابع: حج فكري ٩٤

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس: من كتب قوانين الطبيعة؟! ١٠٢
الفصل السادس: هل علم الكون أننا قادمون؟! ١١٦
الفصل السابع: كيف صارت الحياة حيّة؟! ١٢٤
الفصل الثامن: هل يأتي شيء من اللاشيء؟! ١٣٢
الفصل التاسع: البحث عن مكان للإله ١٤٢
الفصل العاشر: الانفتاح للقدرة المطلقة ١٤٩

الملاحق

الملحق الأول: الإلحاد الجديد: تقييم نقدي لدوكينز ودانيت وولبرت وهاريس وستنجر ١٥٤
الملحق الثاني: كشف الإله لذاته عبر التاريخ الإنساني: حوار حول يسوع مع نيكولاس توماس رايت ١٧٢

الهوامش ٢١١
الفهرس ٢٢١

لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

for Studying Atheism and Contemporary Issues of Faith